تبعية المقاومة الفلسطينية لإيران

محمد أبوالفضل
كاتب مصري

ليس هذا العنوان من قبيل التهكم أو السخرية أو للتقليل من الدور النبيل الذي قامت به المقاومة الفلسطينية، لكنه يعكس وصفا خطيرا ظهر على لسان مسؤول إيراني مؤخرا، حيث اعتبر الرجل حركتي حماس والجهاد من الأدوات الإقليمية للدفاع عن بلاده ضمن ستة جيوش تتولى مهمة الردع والدفاع في أي لحظة.

مر حديث علي غلام رشيد قائد ما يعرف بـ"مقر خاتم الأنبياء" يوم الأحد الماضي دون أن تتوقف عنده تفصيلا الحركتان، ما يحمل موافقة ضمنية على ما قيل في حق المقاومة التي ظلت تناضل منذ عقود ضد الاحتلال الإسرائيلي للدفاع عن القضية العربية المحورية، وإذ بطهران تشطب هذا التاريخ بتصريح واحد.

أشار غلام رشيد إلى أن قاسم سليماني القائد السابق لفيلق القدس أعلن قبيل مقتله أنه قام بتنظيم ستة جيوش بدعم من قيادة الحرس الثوري وهيئة الأركان العامة للجيش، وتحمل ميولاً عقائدية وتعيش خارج البلاد، مهمتها الدفاع عن إيران ضد أي هجوم.

حماس والجهاد أصيبتا بالخرس السياسي خوفا من أن تكشف إيران الكثير من التفاصيل التي قد تحرجهما أمام المواطنين الذين وثقوا بهما وعولوا على قدرتهما في الحفاظ على شرف فلسطين وكرامتها

تشمل هذه الجيوش حزب الله اللبناني، وقوات النظام في سوريا، والحشد الشعبي العراقي، وميليشيا الحوثيين في اليمن، علاوة على حركتي حماس والجهاد.

كان الحديث يدور حتى وقت قريب حول سيطرة إيران على مفاتيح أربع عواصم عربية، هي بغداد ودمشق وبيروت وصنعاء، والآن يضاف إليها قطاع غزة الذي تهيمن عليه حماس وتلعب حركة الجهاد دورا متفاوتا في دعمها سياسيا وعسكريا.

مهما كانت قوة العلاقة بين المقاومة الفلسطينية وطهران، وجزء كبير منها معروف، لم يتخيل أحد أن تصل الجرأة إلى القول إن حماس والجهاد من أدوات إيران العسكرية في المنطقة، ما يجردهما من دورهما الوطني الذي درجتا على ترويجه، ويقلل من حظوظهما الشعبية في الشارع العربي، فلا يزال هناك من يعتقدون أن سلاح المقاومة هو سبيل الدفاع عن القضية الفلسطينية.

لا أعلم هل إيران بهذا التصريح أرادت أن تظهر لإسرائيل قربها منها أكثر مما تتخيل، أم تحاول التأكيد على أن أحد أذرعها في المنطقة متمثلا في المقاومة الفلسطينية يمكنه أن يكبدها خسائر كبيرة إذا تجرأت على القيام بتصرف عسكري كبير ضدها، أم كشفت عن الحقيقة التي حاولت حماس والجهاد مداراتها طويلا؟

ربما ينطوي تصريح غلام رشيد على كل هذه الأغراض مجتمعة، لذلك ينذر توقيت إعلانه بأن هناك مرحلة جديدة يمكن أن تدخلها طهران، قد يكون للمقاومة الفلسطينية دور مهم فيها، فالإشارة إلى حماس والجهاد مباشرة في الوقت الراهن لم تكن عبثا أو صدفة أو رمية بغير رام؛ فأن يأتي الحديث عن العلاقة بالشكل التي بدت فيه العلاقة العقائدية طاغية فهذا يعني أن ثمة ترتيبات تقوم بها إيران ستشهد توترا دوليا معها.

بعيدا عن الأهداف الإيرانية من وراء التلميح المتعمد لمسألة التبعية، جرى نزع ورقة التوت التي تتغطى بها الحركتان حيث صورتا التعاون مع طهران على أنه يتم وفق أطر أيديولوجية، وأن الدعم الذي تتلقاه كل من حماس والجهاد من طهران لأجل عيون تحرير القدس كقضية إسلامية مهمة في الخطاب السياسي الإيراني.

زاد التصريح من شكوك البعض في المقاومة وروابطها الخفية بإيران والأغراض التي تسعى لتحقيقها في المنطقة وأنها لا علاقة لها بالقضية الأم أو تحرير الأرض أو إجبار إسرائيل والمجتمع الدولي على القبول بدولة فلسطينية قابلة للحياة، وبعزز هذا التطور حالة عدم الثقة في المقاومة التي بدأت تتنامى منذ انحراف قادتها عن أهدافها، والاستغراق في الانقسام ورفض التجاوب مع الجهود المختلفة لترميمه.

يلقي التصور الإيراني بظلال سلبية على بعض الدول العربية التي تجاوزت أخطاء حماس، ورأت أنه يمكن تدجينها هي وحركة الجهاد، أو على الأقل منع ارتمائهما في أحضان طهران التي تعرف جيدا كيف توظف أوراقها العسكرية والسياسية.

يوحي هذا الكلام بأن طهران موجودة في قلب غزة، الأمر الذي يسبب إزعاجا للقاهرة التي تحرص على القبض على الكثير من مفاتيح القطاع لوقف انفراطه، وتعمل على منع تحويله من قبل حماس إلى دويلة إسلامية يمكنها أن تستقطب المتطرفين من مناطق مختلفة وتصبح فناء خلفيا تستخدمه إيران في الضغط على إسرائيل وربما مغازلتها.

جاء إعلان المسؤول الإيراني كجرس إنذار لمصر التي استطاعت ضبط سلوك حماس أحيانا ووقف تماديها في التصعيد العسكري لأنها لن تتمكن من الصمود طويلا أمام آلة الحرب الإسرائيلية وسوف تتسبب في زيادة معاناة الشعب الفلسطيني في غزة.

ويؤكد أن الدعم الذي تقدمه إيران لحماس والجهاد يتم تسخيره لأجندتها السياسية، وهو ما يوسع الفجوة التي تعاني منها القوى الفلسطينية، فإحدى أزماتها التاريخية تكمن في ارتباطها بحسابات قوى إقليمية، لكن ما لم يكن في الحسبان هو أن يتحول الارتباط إلى تبعية كاملة، وتعمل الحركتان ضمن منظومة لا تراعي الحد الأدنى من المصالح الوطنية التي جرت المحافظة عليها سابقا.

لم تنتبه إيران إلى أنها في غمرة تفاخرها أضرت بأدواتها وأذرعها في المنطقة، ونزعت ورقة التوت عن كل من حماس والجهاد اللتين حاولتا التدثر بها وتتعلق بأنهما تتزعمان سلاح المقاومة الفلسطينية في وجه إسرائيل بعد أن خفت نجم حركة فتح.

المثير أن الحركتين أصيبتا بالخرس السياسي خوفا من أن تكشف إيران الكثير من التفاصيل التي قد تحرجهما أمام المواطنين الذين وثقوا بهما، وعولوا على قدرتهما في الحفاظ على شرف فلسطين وكرامتها، فقد قدمتا العلاقة في شكل تعاون وتنسيق يبدو فيه الطرف الفلسطيني ندا أو موازيا لطهران، فكما تتلقى كل من حماس والجهاد دعما منها فهما تقدمان لها مساعدات تخدم أهدافها في إطار من المصالح المشتركة.

وضع العلاقة في خانة التبعية يخسّر المقاومة الفلسطينية جزءا كبيرا من رصيدها المعنوي الذي راكمته بفعل مواجهات عديدة خاضتها ضد إسرائيل في الآونة الأخيرة.

لم يعد الحديث عن تبعية حزب الله والحشد الشعبي والحوثيين شيقا لأسباب مفهومة تتعلق بالوازع الشيعي المشترك الذي يحكم إيران بهم، ودورها في نشأتهم وتضخيم المهام التي يقومون بها، بينما الحال يبدو مختلفا في الحالة الفلسطينية، فحركتا حماس والجهاد تنتميان إلى المذهب السني ونشأتهما جاءت لاعتبارات وطنية.

يؤدي نزع الغطاء الوطني عن الحركتين وإسناده إلى خدمة أغراض إيران إلى تغير في التصورات التي كانت تراهن عليهما في معركة الاستقلال، ويقدم لإسرائيل هدية ثمينة كانت تحلم بها سوف تمكنها من زيادة ضغوطها على المقاومة الفلسطينية التي سيكون من السّهل التشكيك في ولاءاتها الوطنية.

من عراق الزمن الجميل إلى عراق الزمن الرديء
مولود باشا مخلص مثالا

إبراهيم الزبيدي
كاتب عراقي

من الكتب الممتعة النافعة والجديرة بالقراءة كتابٌ بذل فيه الزميل هاتف الثلج جهدا كبيرا لتسجيل أهم صفحات بُناة العراق الحقيقيين، وتوثيق ما في مسيرة كل واحد منهم من ملاحم تقطر نزاهة وشجاعة ووطنية غير مفتعلة لم يكن بطلُها ينتظر أن يقبض ثمنها من شعبه، وظيفة أو ثروة، بل لقد رحل بعضهم وهو لا يملك إلا الستر والسيرة الحسنة واحترام الأجيال المتعاقبة.

واحدٌ من هؤلاء الرجال الأشداء هو مولود باشا مخلص. فمنذ أن بلغ العشرين من عمره في العام 1905 وحتى وفاته عام 1951 لم ينم ليلة واحدة وهو آمنٌ أو خالٍ من همّ. وقد عاش عمره كله وهو مسكونٌ بهاجس الواجب القومي والوطني الذي جعله داخلا في معركة أو عائدا من معركة ضد الظلم والاستعمار والاستغلال.

فمذ كان ضابطا في الجيش العثماني، ثم ضابطا في الجيش العربي، وأخيرا أحد أهم مؤسسي الجيش العراقي الذي حله الغزو الأميركي، وهو أحد أبرز الناشطين العراقيين الذين لم يدخروا جهدا في تنوير أمّتهم وتحرير وطنهم والدعوة إلى الثورة من أجل الحرية والكرامة والاستقلال.

وكان هذا ما أقنعه بالانضمام إلى الثورة العربية بقيادة الملك الحسين بن علي، والجهاد من أجل الخلاص من الاستعمار العثماني بمعاونة الإنجليز، مقابل تعهدهم بمنح الدول العربية استقلالها وحريتها فور انتهاء الحرب.

ولكنه حين تأكد، بعد سقوط الدولة العثمانية، أنهم غدّارون ومخادعون وغير عازمين على الوفاء بوعودهم لم يدّخر جهدا في محاربتهم والسعي للخلاص من استعمارهم الجديد وظل كارها لهم إلى آخر يوم في حياته.

وبين هذا وذلك تحمّل كثيرا جدا من التضحيات والآلام الشخصية والأسرية، ولم يتوقف عن جهاده ضد الاستعمار الإنجليزي، حتى وهو أحد الأعوان المقربين والمؤتمنين من قبل الأمير فيصل الأول في سوريا، ثم أبرز مناصريه ومعاونيه ومشاركيه في تأسيس الدولة العراقية الجديدة.

وفي الدولة العراقية الوليدة قادتْه سمعتُه الوطنية وجهاده وصدقه ونزاهته إلى مناصب مهمة في الجيش والدولة، رغم عدم رضا الإنجليز عنه.

ففي فترة من حياته كان متصرفا (محافظا) للواء (محافظة) كربلاء، وذات يوم جاءته رسالة من المندوب السامي البريطاني في بغداد تخبره بأن المستشار الإنجليزي سيزور لواء كربلاء للتفتيش، وتطلب منه أن يقوم باستقباله بنفسه عند أول حدود اللواء. فغضب واستدعى مدير شرطة كربلاء وأمره بأن يذهب إلى أول حدود المحافظة وعند وصول المستشار الإنجليزي يأمره بأن يعود من حيث أتى، ويقول له "ممنوع دخول اللواء ما دام المتصرف فيها مولود مخلص". وقد أنفذ مدير الشرطة أمر المحافظ بأمانة.

حادثة أخرى وقعت ذات يوم استدعاه فيه الملك فيصل الأول لمهمة عاجلة، وكانت سيارته معطلة. فلم يجد وسيلة سفر من تكريت إلى بغداد إلا سيارة البريد العام، فركب مع باقي ركابها العاديين. وفي الطريق، عند منطقة (السميجة) ظهر خمسة قطاع طرق بهدف السّلب، فتصدى لهم الباشا وبادلهم نارا بنار، وظل يقاتلهم حتى أصاب أحدهم وأصيب هو بعدة جروح نقل بعدها إلى مستشفى المجيدية في بغداد.

ويومها كانت المس بيل هي حاكمة العراق الحقيقية، تماما كما كان الحاكم الأميركي بول بريمر في أعقاب الغزو الأميركي. فقامت بزيارته في مشفاه للتشفي والتقريع، فبادرته بالقول، "ها... مولود، أليس هؤلاء هم جماعتك العرب؟ لقد حاولوا قتلك بقصد السرقة". فرد عليها "لا، هؤلاء لم يكونوا يريدون قتلي بقصد السرقة، بل هم كانوا يريدون قتلي ظنا منهم بأنني واحد من عملائكم!".

وحين زاره الملك فيصل الأول في داره خاطبه، وهو طريح الفراش، "يا سيدي لا أدري إن كنت سأعيش أو أموت، لكن وصيتي لك أن تعفو عن هؤلاء، لكي لا تشمت بنا المس بيل".

وفي العام 1937 فاز بمقعد نائب عن بغداد وانتخبه النواب بالإجماع رئيسا لمجلسهم. وهنا نسجل هذه الحقيقية. فبالرغم من أن سلطات الاحتلال البريطاني كانت تعده من معسكر أعدائها الأشداء إلا أنها كانت أذكى من التدخل لمنع انتخابه رئيسا لمجس النواب.

يعني أن مولود باشا مخلصٍ لم يتسلم رئاسة مجلس النواب هبةً من محتل، وليس بصفقة (دولارية) مليونية بين حزب وحزب، أو ميليشيا وميليشيا، كما هو قائم حاليا في العراق.

وكذلك كان حال زملائه الذين تعاقبوا على رئاسة مجلس النواب، وهم عبدالمحسن السعدون، رشيد عالي الكيلاني، عبدالعزيز القصاب، توفيق السويدي، جعفر العسكري، جميل المدفعي، محمد رضا الشبيبي، ومحمد فاضل الجمالي.

وفي الزمن الأميركي ووريثه الزمن الإيراني في العراق تتابع على رئاسة مجلس النواب، مثلا، محمود المشهداني وإياد السامرائي وفؤاد معصوم (بالإنابة) وأسامة النجيفي وسليم الجبوري ومحمد الحلبوسي.

وفي جميع الحالات كان الحاكم المدني الأميركي بول بريمر، ثم قاسم سليماني من بعده، من يتكرم بإهداء رئاسة المجلس، وهي حصة الطائفة السنية، للمستحِق السني الذي يجتاز تجارب صعبة عديدة يثبت من خلالها أنه منبطح كامل الأوصاف، ولا يُحتمل، حتى لو بنسبة واحد في المليون، أن تصحو لديه غيرة ورجولة ووطنية ذات يوم فيتمرد أو يغدر أو يتقاعس عن خدمة سيده صاحب الفضل عليه بالرئاسة. أما الكفاءة والنزاهة والوطنية فمن الممنوعات.

ثم تحولت الوزارات غير السيادية والمؤسسات الأخرى إلى دكاكين معروضة للبيع والاستئجار، ولكل شاطرٍ ما اشترى.

ففي ظل قانون شريعة الغاب الجديد التي حكم بها المحتل الأميركي ثم وريثه المحتل الإيراني أصبح المال بلد المال، والمال يلد السلطة، والسلطة تلد المال، إلى أن يقضي الله أمرا كان مفعولا.

ترى، لو طال العمر بمولود باشا مخلص ورأى محمد الحلبوسي وخميس الخنجر وهادي العامري ونوري المالكي وقيس الخزعلي وأبو فدك هم القادة والزعماء وأصحاب الحل والربط أكان سيتردد لحظة في أن يشهر مسدسه فيطلق الرصاص يمينا ويسارا حتى ينتصر أو ينتحر كما انتحر رفيقه الخالد عبدالمحسن السعدون؟

العرب
أول صحيفة عربية صدرت في لندن
1977 أسسها
أحمد الصالحين الهوني

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير المسؤول
د. هيثم الزبيدي

رئيس التحرير والمدير العام
محمد أحمد الهوني

مدراء التحرير
مختار الدبابي
كرم نعمة
منى المحروقي

مدير النشر
علي قاسم

المدير الفني
سعيدة اليعقوبي

تصدر عن
Al-Arab Publishing House
المكتب الرئيسي (لندن)
The Quadrant
177 – 179 Hammersmith Road
London, W6 8BS, UK
Tel: (+44) 20 7602 3999
Fax: (+44) 20 7602 8778

للإعلان
Advertising Department
Tel: +44 20 8742 9262
ads@alarab.co.uk

www.alarab.co.uk
editor@alarab.co.uk